# وكانوا فيه من الزاهدين

طارق مصطفى حميدة
**مركز نون للدراسات القرآنية**

قال تعالى: ( وجاؤوا أباهم عشاء يبكون قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وجاؤوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان عما تصفون).

جاؤوا أباهم وقت العشاء باكين مع أن المعتاد أن يعود الرعاة عند الغروب، فإن الجاني يحرص على تأجيل لحظة الحساب ما أمكنه ذلك، وقد حكى القرآن عن قوم يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ظنا منهم أن طول عمرهم سيزحزحهم عن العذاب، ومن دواعي تأخرهم إلى العشاء أن يجدوا لهم مبرراً لإنهاء اللقاء بسرعة كي يتوجهوا إلى النوم، وأيضاً لتخفي ظلمة الليل الكذب الذي في عيونهم.

وجاء استخدامهم لتعبير ( فأكله الذئب)، دون افتراسه مثلاً، إذ هي نفس عبارة والدهم حين قال: ( وأخاف أن يأكله الذئب)، واستعماله لهذا التعبير ربما لما يعلمه من صغر يوسف وطراوته، وهم استخدموه ليؤكدوا أنه لم يُبق منه شيئاً.

وجاؤوا على قميص يوسف بدم كذب، ووصف الدم بأنه كذب لأن الكذب يكون بالأفعال كما يكون في الأقوال سواء بسواء، وربما كان هذا التعبير لإظهار انفضاح كذبتهم، وقد فضحتهم ألسنتهم من قبل وهم يقولون: ( وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين )؛ وذلك منهم إقرار بأنهم غير صادقين.

وما كان ليعقوب أن يصدقهم وقد لاحظ منهم من قبل ما يوحي بأنهم سيكيدون ليوسف، ثم إن كلامهم وفعالهم جميعها مكشوفة لا تخفى على ذي لب، ومن هنا يجيء رده عليهم: ( بل سولت لكم أنفسكم أمراً) ، فليس الأمر على ما تزعمون بل هي نفوسكم زينت لكم وسهلت اقتراف سوء في حق أخيكم، وليس أمامي إلا الصبر الجميل أتحمل فيه فراق يوسف، لا أشكو ولا أتضجر ولا أجزع، وأعاملكم على بسط الوجه وكظم الغيظ، وأرضى بقضاء الله تعالى، إذ هو المستعان على ما تصفون من هذه المصيبة.

وكذلك ما كان يعقوب ليصدقهم وقد سمع من يوسف رؤياه ، التي تخبر بأنه سيكبر ويؤتى النبوة والملك، وسيجتمع شمل الأسرة تحت لوائه، لكن الفراق صعب، فكيف إذا انضاف إليه الجهل بما يتعرض له ولده الصغير؟

قال سبحانه:( وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين).

لقد حصل الذي توقعه ذاك الأخ، فجاءت قافلة وأرسلت من يحضر لهم الماء، فالتقط يوسف من الجب، ويستدل من تيقن الأخ أن بعض السيارة سيلتقطونه، ومن استبشار وارد القافلة، ومن إخفاء يوسف ضمن بضائعهم كيلا يراه أحد من أهله أو معارفه، أنه كان من المعتاد لدى هذه القوافل، وربما لدى العديد من المجتمعات المحيطة أيضاً، استرقاقهم من يستضعفونه أو يلتقطونه، دون أي اعتبار إنساني.

ويأتي التعقيب القرآني( والله عليم بما يعملون)، فلئن أخفوا يوسف عن عيون أهله، فإن عين الله تعالى ترعى يوسف.

ثم إن رجال القافلة باعوا يوسف بثمن بخس دراهم معدودة زاهدين فيه، فهم ابتداءً لم يدفعوا فيه شيئاً، ولعلهم قلقون من انكشاف أمرهم عند أهله أو عند جهة تعاقب على ذلك الفعل، فلذلك حرصوا على سرعة التخلص منه.

ولا بد هنا من تصويب لخطأ يتردد في عدد من المصادر، أن الذين باعوه هم إخوته، والآيات صريحة في أن من فعل ذلك هم رجال القافلة، وأن الإخوة تركوا يوسف في الجب وعادوا إلى أبيهم.